

المثاقفة، تشريح المفهوم، واستكشاف الآليات والمجالات

Interculturalism, Dissecting the concept, and exploring its mechanism and domains

نصيرة بلييلة¹

¹ جامعة الجزائر (2)، الجزائر ، nacira.belilita@univ-alger2.dz

تاريخ النشر: 2026/03/01

تاريخ القبول: 2025/11/16

تاريخ الاستلام: 2025/11/02

ملخص:

ارتبط مصطلح (الثقاف) بمفهوم الثقافة، ويعني وجود تمازج ثقافي بين مجتمعين أو أكثر، على مستويات عدة، لعل أهمها: الأدب والنقد، واللغة... وهو أمر يتم بقصد أو من غير قصد، لذلك سنحاول في ورقتنا البحثية هذه الإحاطة أولاً بمفهوم المثاقفة، ثم رصد البدايات الأولى لهذه الظاهرة، وأهم الأطوار التاريخية التي مرت به، ثم تبين أنواعها وآلياتها، وأخيراً مجالاتها وشروطها.

مع التأكيد على أنّ المثاقفة ليست مجرد تلاقح ثقافي، بل إعادة تشكيل للهويات والتمثّلات، حيث تبرز أهميتها في حوار الثقافات، من خلال بناء مجتمع إنساني متكامل لا توتر فيه ولا عداوة، وتشيد بنية ثقافية متماسكة واعية بذاتها وعارفة بأفكار الآخرين، التي يمكن توظيفها أو التخلي عنها وفق ما ينسجم وثوابت هويتها، ومعالِم خصوصيتها وانتمائها.

كلمات مفتاحية: المثاقفة، الثقاف، الثقافة، الغزو الثقافي

Abstract:

The term *acculturation* is closely tied to the concept of culture, referring to the cultural blending between two or more societies on various levels— most notably in literature, criticism, and language. This interaction may occur intentionally or unintentionally. In this research paper, we aim first to define the concept of interculturalism (*al-muthāqafa*), trace the early beginnings of this phenomenon, and outline the key historical phases it has undergone. We also seek to clarify its types and mechanisms, and finally, its fields of application and conditions for occurrence.

It is important to emphasize that interculturalism is not merely a process of cultural exchange or hybridization; rather, it is a dynamic reformation of identities and representations. Its significance lies in fostering dialogue among cultures, aiming to build an integrated human society free of tension and hostility, and to construct a coherent cultural structure—one that is self-aware, knowledgeable of others' ideas, and capable of either adopting or rejecting them in accordance with the constants of its identity and the hallmarks of its uniqueness and belonging.

Keywords: Interculturalism, acculturation, culture, cultural invasion

المؤلف المرسل: نصيرة بلييلة

1. مقدمة:

لقد أكد القرآن الكريم على ضرورة وأهمية التعارف بين مختلف الشعوب، قال عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ، وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (سورة الحجرات، الآية 13).

إن معرفة الآخر ضرورية لتعرف الفرد على ذاته، من هنا كانت الثقافة عاملاً مؤثراً في تطوّر الحضارات الإنسانية، والسبيل الأوحّد لتقدّم المجتمعات وسيرها في مدارج الكمال، وفق نظرة التسامح والاحترام للآخر المبنية على الثقة، التي تهدف إلى الاغتناء المتبادل الإرادي وفق مبدأي "التبادلية الإيجابية" و"الغايات النبيلة" بعيداً عن التوتر والعداوة التي غالباً ما يغذيها الانعزال، والجهل بالآخر والأحكام المسبقة عنه.

من خلال هذه الورقة البحثية سنحاول الإجابة عن الإشكالية الرئيسة الآتية: ما المقصود بمصطلح (الثقافة) وما حدوده التاريخية؟، وما هي أنواع الثقافة، وما مجالاتها وشروطها؟

وعليه تهدف الدراسة إلى:

- محاولة الإمام بمصطلح الثقافة وتمييزه عن مصطلحات مثل (العولمة، التبادل الثقافي، الاستعمار الثقافي، الغزو الثقافي).

- التطرق إلى أنواع الثقافة وأهم آلياتها.

- تسليط الضوء على مجالات الثقافة وشروطها.

- توضيح الصلة الوثيقة التي تربط الثقافة بالغزو الثقافي.

ويقوم هذا البحث على المنهج التاريخي الاستدلالي، واشتمل على مفهوم الثقافة في اللغة والاصطلاح،

ونشأتها، ثم صلتها بمصطلح الغزو الثقافي، والتطرق لأنواع الثقافة وأهم آلياتها، وأخيراً مجالاتها وشروطها.

2. مفهوم الثقافة

إن اهتمام الأدب المقارن بدراسات الترجمة والاستشراق والصوراتية وأدب الرحلات وصورة الآخر، جعلها تختزلها في حقل واحد شامل أطلق عليه اسم "الثقافة"، التي أصبحت فرعاً أساسياً في "نظرية المقارنة"، بل يمكن أن تصبح "نظرية الثقافة" فرعاً من فروع النقد، أو حقلاً مستقلاً تمام الاستقلال، (ينظر، عز الدين المناصرة، 1988م، ص 74). لتصبح الثقافة من حيث الأهمية وسطاً بين الانفتاح المطلق وبين الانغلاق المطلق، لذلك ينبغي عدم الخلط بين مصطلح الثقافة ومصطلحي الغزو الثقافي والاختراق أو الاستلاب الثقافي، هاته الأشكال التي عبّر عنها "المهاتما غاندي" Mahatma Gandy بقوله: «إنني أفتح نوافذي للشمس والرياح، ولكنني أتحدّى أية رياح أن تقتلني من جذوري»، (حبيب بوهورور، 2011م، ص 4).

فالغزو الثقافي هو غزو غير مسلح غزو للأفكار، لتحقيق هدف عام ممثل في إضعاف الإسلام والمسلمين،

(ينظر، خالد بن عبد الله القاسم وإبراهيم بن حماد الريس أحمد بن عثمان المزيّد وإدريس بن حامد محمد وعلي بن عبد الله الصيّاخ، ص 24)، ومن هنا فهو الذي يتأسس على طمس الهوية لإحاقه بالآخر، رغبة في فرض السيطرة للهيمنة عليه.

إنّ فحص المفاهيم والتّديق في مدلولاتها تبعدها عن التّأويل الخاطئ، لكون مفهوم المثقافة من المفاهيم الّتي تحيط بمسار الاندماج المتزايد للمجموعة البشرية عبر التّاريخ من جهة، ومن جهة أخرى لكون هذا المصطلح من المصطلحات الّتي يشوبها بعض التّباين في المفهوم والدلالة لدى بعض المفكرين والنّقاد، (ينظر، عمر عتيق، ص2)، الغرب، فضلا عن التّباين بين هؤلاء والنّقاد والمفكرين العرب، لذلك ارتأينا في تحديد دلالاته ومفهومه أن نقسّمه إلى قسمين:

1. مفهوم الثقافة عند الغرب.

2. مفهوم الثقافة عند العرب.

1.2 المثقافة لغة

المثقافة لغة عند "ابن منظور" مصدر مشتق من الفعل «ثَقَفَ الشيء ثَقْفًا وثَقَافًا وثُقُوفَة: حدقه... تقول العرب: ثُقِفَ الرَّجُلُ ثقافة أي صار حاذقًا... ومنه المثقافة»، (ابن منظور، ج6، مج1).
أمّا في (القاموس المحيط) فقد جاءت كلمة ثقف: «ثُقِفَ، كَكَرِمَ، وفرح، ثُقِفًا وثُقْفًا وثُقَافَةً، صار حاذقًا خفيًا فطنا، فهو ثُقُفٌ...وَتُقِفَهُ تَثْقِيفًا: سَوَاه. وَثَقَفَهُ فَثَقَّفَهُ، كَنَصَرَهُ: غَالَبَهُ فَغَلَبَهُ فِي الْحَدَقِ...»، (الفيروز آبادي، ج3).

وقد تعرّض "الزمخشري" للمثقافة لدى تفسير قوله تعالى: ﴿إِنْ يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً، وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ (سورة الممتحنة، الآية 2)، بمعنى إن يتمكّنوا منكم يكونوا لكم أعداء خالصي العداوة، كأنه يقول وودّوا قبل كلّ شيء كفركم وارتدادكم، يعني أنّهم يريدون أن يلحقوا بكم مضار الدّنيا والدّين جميعا من قتل النّفس وتمزيق الأعراض وردّكم كفّارا أسبق المضارّ عندهم وأولّها، لعلمهم أنّ الدّين أعزّ عليكم من أرواحكم، والعدوّ أهمّ شيء عنده أن يقصد أعزّ شيء عند صاحبه، (ينظر، الزمخشري، 1998م، ص90).

ومن علماء الغرب من يقول إنّ لفظة المثقافة في الثقافة الأنجلوسكسونية مستمدّة من الكلمة الإغريقية L'acculturation، حيث يقابله في اللّغة الفرنسية تداخل الحضارات Interpénétration des Civilisations، في حين استعمل مصطلح التّبادل الثقافي في اللّغة الإنجليزيّة Cultural Change (Robert Lafond, 1963, p10). وهو المصطلح ذاته الّذي استعمله "مالينوفسكي" Malinowski. أمّا الإسبان فقد أثروا مصطلح التّحوّل الثقافي Transcultuation. (Robert Lafond, 1963, p10, p114)

2.2 المثقافة اصطلاحاً

تُجمع المراجع على أنّ المثقافة كمصطلح سوسيولوجي أنثروبولوجي استُخدم أوّل مرّة في الأنثروبولوجيا الثقافيّة لأمريكا الشماليّة، ويعتبر "غريبنر" Graebner أوّل من أذاعه سنة 1880م، (ينظر، ابن أحمد قويدر، 2007م، ص 119).

وكان يقصد به دراسة التغيّرات الناتجة عن الاحتكاك بين شعبين أو ثقافتين مختلفتين، (ابن أحمد قويدر، 2007م، ص 119). فالمثقافة بهذا الشكل هي مصطلح حديث يوحي بالتّداخل الحاصل بين مختلف الحضارات، من

خلال التلاقح والاتصال المثمر، بغية التواصل مع الآخرين لمعرفة ما لديهم الاستفادة منه. الأمر الذي يترتب عليه حدوث تغيرات في الأنماط الثقافية الأصلية السائدة أو تعديلها، سواء من الوجهة السيكولوجية الاجتماعية أو الأنثروبولوجية الثقافية أو التاريخية، نتيجة لشكل من أشكال الاتصال بين الثقافات كالاستعمار أو الرحلات والأسفار أو المبادلات التجارية...فهي تفاعل خيار طوعي مباشر، لا يتم ولا يثمر إلا برغبة تبادلية بين المتحافين، لذلك تعدّ رافدا مهما لمعرفة الآخر واستثمار ما لديه.

وأول من استعمله وظيفيًا هو العالم الأنثروبولوجي الأمريكي "جون ويسلي باوول" John Wesley Powell، (ينظر، حبيب بوهروز، 2011م، ص3)

وفي سنة 1936م تمّ الاتفاق على مصطلح الثقافة ووضع تعريف له -حسبما جاء في مدونة "هير سكوفيتش" Herskovits، "رالف لينتون" Ralf Linton، "ريد فيلد" Red Field في المؤتمر الذي عُقد سنة 1938م - خلاصته أنّ الثقافة هي مجمل الظواهر والتغيرات الناتجة عن اتصال مباشر، وتواصل بين جماعات ذات ثقافات مختلفة، (ينظر، حبيب بوهروز، 2011م، ص3)، وما يلاحظ في هذا التعريف كغيره من التعريفات أنّه قائم على فكرة الاتصال بين أفراد ينتمون إلى جماعات ثقافية متباينة؛ أي مفهوم التأثير والتأثر، وما تؤكّده مقولة "عز الدين المناصرة" بأنّ «جوهر الثقافة هو المقارنة»، (عز الدين المناصرة، 1988، ص30). ولكن هو الآخر يؤكد على أنّ انفتاح المشرق على الغرب يحمل دلالة الإعجاب بالحدثية، (ينظر، عز الدين المناصرة، 1988م، ص30).

إنّ اتّساع دلالة الثقافة منذ ظهورها إلى يومنا، لتشمل مستويات التأثير والاستيعاب التعديل والرفض... ليس إشكالا، لكن المشكل الحقيقي المتمركز في وجود ما يسمّى بالسابق واللاحق.

تتجلّى مظاهر هذه الثقافة فيما تقتبسه ثقافة ما عن غيرها من الثقافات، وتعمل على تأصيله واستيعابه، حتّى يغدو جزءا منها بعد أن كان وافدا عليها من الفضاء الخارجي. الأمر الذي يجعلنا نفرّق بين نوعين من الثقافة: ثقافة مبرمجة وأخرى اختيارية، وإن أصبحنا اليوم نسمع بما يسمّى بالثقافة المبرمجة؛ أي أنّها لم تعد حرة اختيارية تحصل من جانب دون آخر. إنّ الثقافة -حسب هذه المفاهيم- مفهوم تتنوّع أنماطه بين التأثير والتأثر إلى التفاعل والحوار، مروراً بالاستيعاب والتّمثيل، وصولاً في بعض الحالات إلى الرفض وعدم القبول، وهي الأنماط أو المستويات التي أطلق عليها "بيري" Berry تسمية ميكانيزمات، واقترح أربعة هي، (ينظر، ابن أحمد قويدر، ص121):

1. الاستيعاب Assimilation: ويعني به ترك الفرد لهويته الثقافية لأخذ هوية ثقافة مهيمنة.

2. التهميش Marginalisation: ويقصد به ترك الفرد لهويته الثقافية، دون الأخذ أو الرفض للثقافة المهيمنة.

3. الانفصال Séparation: وفيه يأخذ الفرد هويته الثقافية، دون الأخذ بالثقافة المهيمنة.

4. الاندماج Intégration: وهنا يأخذ الفرد هويته الثقافية، وكذا الثقافة المهيمنة

واضح من آراء الغربيين أنّ الثقافة نظرياً هي تعبير عن مختلف أوجه التبادل الثقافي بين الحضارات البشرية المتنوعة، وهو أمر طبيعي لكن الظاهر اليوم يؤكّد أنّها علاقة بين ثقافة متفوّقة وأخرى متخلّفة. وهو ما يؤكّد عليه "حسن حنفي" حين يقول إنّ الثقافة: «التي يوهم الغرب بأنّها تعني الحوار الثقافي أو التبادل الثقافي أو

التثقيف، وهي في الحقيقة تعني القضاء على الثقافات المحليّة من أجل انتشار الثقافة الغربيّة خارج حدودها، وهيمتها على غيرها، واعتبار الغرب النمط الأوحد لكلّ تقدّم حضاري، ولا نمط سواه، وعلى كلّ الشعوب تقليده، والسير على منواله. وقد أدّى ذلك إلى إلغاء خصوصيات الشعوب وتجاربها المستقلة، واحتكار الغرب وحده حقّ إبداع التجارب الجديدة والأنماط الأخرى للتقدّم»، (حسن حنفي، 2006م، ص 28/29)، فما أورده هذا المفكر في ثنايا قوله سليم كليّا، فلم يعد للعربي اليوم دور سوى الأخذ والنقل، حاشرا نفسه في قضايا "لا ناقة له فيها ولا جمل". ومفهوم المثاقفة عند العرب لا يختلف كثيرا عمّا هو عند الغرب، لذلك يؤكّد "عز الدين المناصرة" بأنّه لا يوجد تعريف مثالي لمثاقفة مثالية، ويبقى أنّ الحلقة المركزية هي الصّراع وفق قوانين متنوّعة الأشكال، (عزّ الدين المناصرة، 1996م، ص 73).

لذلك يحاول تحديد معاني هذا المصطلح على النحو التالي:

1. لتتّم المثاقفة ينبغي توفر طرفين.

2. تتّم المثاقفة بالقوّة أو القبول.

3. تحمل المثاقفة معنى التعالي عند طرف والدونيّة عند الطرف الآخر.

4. تحمل المثاقفة معنى الفترات الانتقالية والصّراع بين الطرفين.

5. تحمل المثاقفة معنى الاتّصال والتواصل والانفتاح والتّبادل الثقافي الإيجابي.

6. تعني المثاقفة معنى التأقلم مع ثقافة الآخر والاندماج فيه، فيساعد ذلك في إضافة عناصر جديدة إلى ثقافة الآخر.

7. قد يؤدّي ذلك إلى ازدواجية في الشخصية، حيث تبقى حائرة بين عناصر الهوية الأولى وبين العناصر الجديدة. وقد يفضي ذلك إلى رفض الثقافتين دون طرح البديل، أو يتّم الهروب باتجاه ثالث، (ينظر، عزّ الدين المناصرة، 1988م، ص 73).

فهي إذن «تبادل ثقافي بين شعوب مختلفة، وبخاصة تعديلات تطرأ على ثقافة "بدائية" نتيجة احتكاكها بمجتمع أكثر تقدّما»، (عزّ الدين المناصرة، 1988م، ص 73).

فالمثاقفة هي الاحتكاك بين الثقافات المختلفة، بغية التّعاش فيما بينها، من دون احتواء الوحدة للآخرى. إنّها مصطلح سوسيولوجي ذو معان متداخلة، يطلق على دراسة التغيّر الثقافي الذي يكون بصدد الوقوع، نتيجة لشكل من أشكال الاتّصال، وتؤدّي المثاقفة إلى اكتساب عناصر جديدة بالنسبة لكلتا الثقافتين المتصّلتين، (ينظر، عبد الكبير الخطيبي، 1980م، ص 67).

فالمثاقفة بمعناها الإيجابي مفهوم يركّز على نقطة مهمة ينبغي أن تتوفّر، هي أنّ التغيّر يطال كلتا الثقافتين المتصّلتين؛ أي أنّها -حسب "حبيب بوهورور"- مبنية على «علاقة تفاعليّة تطبيقيّة بين ثقافتين مختلفتين أو أكثر، تنشأ جرّاء توليد علاقة تتميز بتبادل الخبرات والمعارف، أو انتقالها من حقل مجتمعي إلى آخر إراديّا»، (حبيب بوهورور، 2011م، ص 3)، وهو ما يتفق مع الهدف الرئيس من المثاقفة، والمتمثّل في معرفة الآخر، واستثمار ما لديه معطيات إنسانية وحضارية، دون المساس بـ «مقوّمات الهوية القوميّة وثوابتها»، (حبيب بوهورور، 2011م، ص 2).

إنّ هذه الجدلية ليست جديدة، إذ أشار إليها "ابن خلدون" حين قال: «المغلوب مولع أبداً بالافتداء بالغالب في شعاره وزيّته، ونحلته وسائر أحواله و عوائده، والسبب في ذلك أنّ النفس تعتقد الكمال فيمن غلبها وانقادت إليه: إمّا لنظره بالكمال بما وقرعندها من تعظيمه، أو لما تُغالط به من أنّ انقيادها ليس لغلب طبيعيّ، إنّما هو لكمال الغالب، فإذا غالطت بذلك واتّصل لها حصل اعتقاداً، فانتحلت جميع مذاهب الغالب، وتشبّهت به، وذلك هو الاقتداء، أو لما تراه، والله أعلم، من أنّ غلب الغالب لها ليس بعصبية ولا قوّة بأس، إنّما هو بما انتحلته من العوائد والمذاهب تُغالط أيضاً بذلك عن الغلب»، (عبد الرحمن بن خلدون، ص 176).

إنّ هذه المقولة تذكّرنا ببعض أفكار "أرسطو" الذي تحدّث عن سيادة الكمال على النقص، والفضيلة على الرذيلة.

وترى الأنثروبولوجية الحضارية الغربية في طرحها المخالف لطرح "ابن خلدون" بأنّ الشعوب المغلوبة قد ترفض الحضارة الغالبة فتفنى، وقد تقبلها وتتكيف معها، وقد لا تتكيف لأنّها لا تطابق حاجاتها ومزاجها، (ينظر، شكري عياد، 1971م، ص 22).

فالمثاقفة بهذا الشكل تحمل معنيين، معنى نفسي يتطوّر ليصبح معنى اجتماعي، وهي الفكرة التي يؤكّدها "محمّد محفوظ" الذي يرى أنّ المثاقفة تكاد تشمل كلّ «السمات الروحية والمادية والفكرية والعاطفية التي تميّز مجتمعا بعينه، أو فئة اجتماعية بعينها، وهي تشمل الفنون والآداب وطرائق الحياة، كما تشمل الحقوق الأساسية للإنسان ونظم القيم والتقاليد والمعتقدات»، (محمّد محفوظ، 2000م، ص 19).

كما يرى "لؤي صافي" و"أحمد الموصلي" بأنّها المستوى الأخلاقي والفكري الذي يوجّه السلوك العام للجماعة، (ينظر، لؤي صافي، أحمد الموصلي، 2002م، ص 100)، فالمرء لا يمكن أن «يبلغ أقصى ما تيسر له من كمال، إلّا بجلاء ذهنه بأفكار الآخرين، وبالأخذ المفيد من آرائهم ودعواتهم»¹، (محمّد غنيمي هلال، ص 10).

أمّا "محمّد مفتاح" فيرى في كتابه "مشكاة المفاهيم -النقد المعرفي والمثاقفة" أنّ المثاقفة هي حصيلة تفاعل وتداخل الثقافات واقتراض بعضها من بعض دون شروط أو قيود، على اعتبار أنّ ما يُقترض يكون وفق ما يسدّ الحاجات فقط، (ينظر، محمّد مفتاح، 2000م، ص 8).

كما يرى "محمّد عابد الجابري" بأنّها من المفاهيم الجديدة، جاءت كردّ فعل على مفهوم صراع الحضارات، التي حلّ محلّها حوار الثقافات، ولكن من يقول بحوار الثقافات -حسب رأيه - يقع في شباك "هانتنغتون" نفسه، لأنّه لا معنى لحوار الثقافات من الناحية التاريخية، فالثقافات تتداخل وتتلاقح بشكل عفوي، وليس عبر تنظيم المؤتمرات أو الندوات، (ينظر، محمّد عابد الجابري، ص 66/67).

خلاصة القول أنّ هناك شبه إجماع معرفي على أنّ المثاقفة، كما يرى "جورج طراييشي" عملية تفترض «وجود طرفين موجب وسالب، فاعل ومنفعل، ملقّح وملقّح»، (جورج طراييشي، 1977م، ص 11).

ثمّ إنّ هذه التّحديدات ما هي إلّا تأكيد واضح على الاضطراب والاختلاط، الذي يطرحه هذا المصطلح؛ كونه يجمع بين جملة من السياقات المعقّدة والمركّبة في آن واحد.

تبقى هذه التّحديّات غربية تعمل لصالح المركزية الأوروبيّة الأمريكيّة. وتركّز على مفاهيم فرعية تدور حول «مقولات (تحضير المتوجّش) و (نهب الأرض المتخلّفة)... (ومؤاخذة المثقف عبر تدجينه واستغلاله بما يكرّس تبعيته الدائمة لمراكز الأدب العالمي الرأسمالي)، (تغيير شكل الثقافة معه بإفهامه عناصر تبرير تبعيته بنفي التبعية شكلا، وإعطائها شكل الحوار بين الطرفين)، كلّ ذلك مع بقاء المراكز صاحبة القرار وبقاء التخوم المنفية تابعة ومجرّد تخوم خادمة»، (عزّ الدين المناصرة، 1988م، ص 51).

3. نشأة المثقافة

إنّ المثقافة ظاهرة طبيعيّة قديمة قدم الإنسان نفسه، فلا يخلو مجتمع من هذه الظاهرة، كما لا يوجد مجتمع استمرّ وجوده في غنى عنها، فكلّ الثقافات تلاقت وتتلاقح فيما بينها، كثر ذلك أو قلّ. فقد أثبتت التجارب التاريخيّة أنّ «المجموعات البشرية التي توخّت سياسية الانزواء والانغلاق ولازمت الانطواء على ذاتها عبر الأحقاب المتتالية، سواء أكان ذلك اختيارا أو اضطرارا قد ظلّت مهما استمرّ بقاؤها عاجزة عن الصمود أمام الزمن، وذلك لأنّها دأبت على الاكتفاء بموروثها ومكتسبها، وعلى استهلاك قواها الذاتية واستنزاف رصيدها الحيوي ومخزونها القيمي، فغدّت فاقدة القدرة على التجدّد لأنّها لم تجد ما تجدّد به نفسها»، (توفيق بن عامر، 2025/08/10م). وتاريخ الإنسانّيّة زاخر بمظاهر المثقافة الرشيدة، ومثال ذلك الحضارة اليونانية وحضارة ما بين النهرين، والحضارة المصرية القديمة، وغيرها من الحضارات العريقة. حيث كانت المثقافة أحد أهمّ العوامل الرئيسة لهذا الازدهار عن طريق التلاقح والتواصل الإيجابي.

أمّا اليوم، فالحديث عن حضارة كونية مزدهرة ضرب من الخيال، إذ حلّت محلّ المثقافة العولمة وما صاحبها من ثورة تكنولوجية وإتصاليّة مذهلة، جعلت العلم كالقريّة الصغيرة، تنتقل فيه المعلومة في أقلّ من لمحة بصر متجاوزة الظرف الزمكاني الخاص بها. إذ أصبح للإعلام سلطة لا تعادلها سلطة أخرى، وأضحى هناك مجتمع إنساني جديد أطلق عليه اسم مجتمع المعلومات أو مجتمع المعرفة، (ينظر، صالح أبوإصبع، 1999م، ص 196)، فلا أحد يجهل اليوم أنّ العولمة لو طُبِّقت كما نُظِرَ لها، لأتاحت فرصة ثمينة للمثقافة لم تكن من قبل، لكن المناخ الذي نعيشه اليوم عكس ذلك، فالمثقافة بالشكل المطبّق اليوم أزاحت المثقافة، لطغيان الرّغبة في السيطرة على الآخر وبسط النفوذ، لأنّها في الأساس نفي للآخر وتكريس لإيديولوجيا الهيمنة على العالم.

4. أنواع المثقافة وألياتها

إنّ وجود أمر مثالي في الحياة أمر مستحيل، وحال الواقع يقول ذلك، وهو ما ينطبق على المثقافة فلا وجود لمثقافة مثالية، وإنّما هناك صنفان -حسب "عزّ الدين المناصرة"-:

1. المثقافة الطبيعيّة L'acculturation Symbiotique: والتي تسمّى أيضا بالمثقافة الطوعية أو الحوارية أو التلقائية، ويقصد بها تلك المثقافة القائمة على مبدأ التسامح و التعايش السلمي بين الأنا والآخر. وهي مثاقفة كشعار موجودة، لكن كتجسيد لا وجود لها أبدا.

2. المثقافة القهرية L'acculturation Antagoniste: ويطلق عليها أيضا تسمية المثقافة المفروضة أو القسرية، أو الصدامية وهي مثاقفة مفروضة من الغرب، قائمة على مبدأ القويّ يأكل الضعيف. فهي تتمظهر بشكل مباشر في

هضم الحقوق السياسية والاقتصادية وتغيير المفاهيم الاجتماعية السائدة من خلال المسّ بشعائهم الدينية وأعرافهم، (عزّ الدين المناصرة، 1988م، ص 9).

إنّ خير مثال على هذه المثقفة تلك المثقفة القائمة بين العرب والغرب، الّتي كانت منذ أول أمرها أحادية القطب، العلاقة فيها قائمة على الشكل التّالي: (الذات/الأنا، النحن/الآخر، الهو/الهم). فلطالما نظر الغرب إلى الشرق على أنّه نقيض الغرب، سواء بالمعنى السلبي، أو الإيجابي، وستظلّ هذه النظرة قائمة مادامت الثقافة العربية تُوصف بأنّها ثقافة الأخذ من الآخر.

ولعلّ من أهمّ أشكالها أيضا محاولة الولايات المتحدة الأمريكية -تحت غطاء العولمة- طمس ثقافة الآخر مدعية حوار الحضارات الّذي في رأينا ليس سوى صدام الحضارات.

تتحرك هذه المثقفة عبر آليات أهمّها الترجمة، الّتي «تعدّ الركن الأساس في تفعيل العملية الثقافيّة كلّها، فكلّ نصّ شفوي أو مكتوب يتضمّن رؤية وخطابا، وتتراوح المستويات فيه انطلاقا من درجات التّأويل والقدرة على بلورة صورة معيّنة حول الذات والآخر، خصوصا في النّصوص الّتي لها علاقة بالشخص»، (حبيب بوهورور، 2011م، ص 5).

والمثقفة بنوعها وآلياتها المتنوّعة يمكن أن تكون إيجابيّة ذات فائدة إذا تخلّى الغرب عن كبريائه ومات إحساس الدونيّة عند الشرق، وهذا لن يتحقّق إلّا إذا ركّز هذا الأخير على دراسة البنيات الثقافيّة الوطنيّة، لأنّها ستكون مدخلا مهمّا لدراسة علاقة هذه البنيات بمثيلاتها الأجنبيّة، باعتبار هذا الأمر شرطا ضروريا للتواصل الإيجابي والتّبادل المستمر.

5. مجالات المثقفة وشروطها

للمثقفة مجالات كثيرة وواسعة، ويمكن أن نجملها في أربعة مجالات أساسية هي:

1. الأفكار: تشكّل المادة الأساس للعقل، لأنّها تساهم في صنع تصوّرات الإنسان، (ينظر، جورج سارتون، 1961م، ص 2). وقد لعبت المثقفة في هذا المجال دورا مهمّا في تمكين كلّ المجتمعات من الاستفادة من نتاج العقل البشري حيثما كان، وتوظيفه بغية تنمية وتطوير الحضارات.

2. اللّغة: تعتبر من أهمّ وسائل الاتّصال بين أفراد مجموعة بشريّة معيّنة، لذلك عُدّت مجالا مهمّا من مجالات المثقفة، وفي هذا الصدد يقول "إدوارد سابير" Edward Sapir: «إنّ لغة جماعة بشريّة ما، جماعة تفكّر داخل تلك اللّغة وتتكلم بها، هي المنظّم لتجربتها، وهي بهذا تصنع عالمها وواقعها الاجتماعي، وبعبارة أكثر دقّة إنّ كلّ لغة تحتوي على تصوّر خاص بها للعالم»، (محمّد عابد الجابري، 1991م، ص 77).

لذلك كانت الترجمة أهمّ وسيلة تتّيم بها المثقفة في مجال التواصل اللغوي، بل هي «الركن الأساسي في تفعيل العملية الثقافيّة»، (شعيب حليفي، 2000م، ص 190)، فاللّغات لن تجدّ نفسها ولن تواكب العصر وتساير النّمو الحضاري إلّا من خلال من تستقبله من روافد ثقافية من هنا ومن هناك.

يضاف إلى هذه الوسيلة وسائل أخرى ممثلة في الاقتراض اللغوي، الذي يحدث نتيجة المخالطة، أو بفضل حركة التبادل التجاري وما ينتقل خلالها من رصيد لغوي عبر ما تحمله منتجاتها من تسميات وتعبير عن الخصائص والمواصفات.

3. الإبداع: إنّ التفاوت في المهارات والمعارف أمر معلوم، فالمجتمعات ليست على درجة واحدة من تلك المعارف والمهارات، ومن هنا كانت المثاقفة أحد أنجع الوسائل لإبراز النتاج الأرقى والمميز، الأمر الذي دفع بالمجتمعات إلى التنافس لتحسينه و تجويده في سبيل تحقيق السعادة للبشر في هذا الكون، (ينظر، مجدي أحمد محمد عبد الله، 2008م، ص ص 76/25).

فحتى لو أُتيح للأمة منفردة مستقلة أن تنتج وتعطي، إلا أنّ الاحتكاك والتلاقح والتعاون والتبادل يضاعف كمية الإنتاج، ويرفع نوعية الإبداع، ويوسّع ساحة العطاء، (ينظر، أحمد لوساني، 1996م، ص 74)، ومثال ذلك قول "جورج سارتون" George Sarton في كتابه "تاريخ العلم" عن المعجزة اليونانية المزعومة بأنّ لها أب وأم شرعيان، أمّا أبوها فهو تراث مصر القديمة، وأمّا أمّها فهي مهد بلاد ما بين النهرين والشرق القديم مهد الحضارات، والمعلّم الأوّل للبشرية في المجالين المدنيّة والمادّيّة والعلوم كلّها، وفي المجال الروحي والمعتقدات الدينيّة، (ينظر، جورج سارتون، ص 142)، يضاف إليهما الحضارة العربيّة الإسلاميّة التي لم تبلغ أوج ازدهارها إلّا عندما تفاعلت وثقافت مع مختلف الحضارات، (حبيب بوهروز، 2011م، ص 4)، لأنّ التقوقع على الذات ما كان ممكنا في يوم من الأيام، وهو اليوم أكثر استحالة لغطرسة وعنجهية الغرب وظلمه.

4. العادات والتقاليد والأخلاق والسلوكيات: ويظهر ذلك جلياً فيما أخذته المجتمعات من بعضها البعض على عدّة أصعدة، سواء على صعيد الغذاء أو الملبس أو السلوك اليومي أو طقوس الأفراح والمآتم. ثمّ إنّ ذلك الأخذ كان مبنياً في الأساس على اعتبارين، أحدهما المصلحة والاستحسان، والآخر الذوق الجمالي والبحث عن الجدّة، وهي نزعات فطرية مغروسة في النّفس البشريّة.

ولذلك فتحقيق هذه المثاقفة مرهون بشروط – حسب رأينا – يمكن أن نجعلها في الآتي:

- _ الاعتراف بواقع التنوّع الثقافي، وبالخصوصيات الثقافيّة.
 - _ التّفاعل السلمي، إذ لا مثاقفة إلّا بمشاركة إيجابيّة من كلا الطرفين.
 - _ التكافؤ في الوسائل لتحقيق التّوازن بين الأطراف المتدخّلة.
 - _ ضرورة وجود الوعي العقلاني، الذي يحقّق التّفاعل الإيجابي.
- لكن هل التزمت الأطراف بهذه الشروط لتحقيق التّبادل الإيجابي؟ الإجابة طبعاً بالنفي، لأنّ فضاء المثاقفة اليوم يتحرّك في فضاء يعمل لصالح الغرب الذي وظّف في هذا المجال «سلطة السلاح... سلطة المال وسلطة الإعلام»، (سمير أمين، 1989م، ص 96).

5. خاتمة

- المثاقفة عملية تفترض وجود طرفين فاعل ومنفعل، ملقّح وملقّح.
- إنّ المثاقفة ظاهرة طبيعيّة قديمة قدم الإنسان نفسه، فلا يخلو مجتمع من هذه الظاهرة.

- إنّ تمكّن الشعوب من مسيرة العصر، والتفاعل معه بغرض الاستفادة من كلّ جديد يطرأ في العالم مرهون بوجود إستراتيجية مدروسة، أو ما يمكن أن نطلق عليه المثقفة السوية، التي تكون مرهونة بتبادل متكافئ للمعارف والخبرات بعيداً عن أيّ شكل من أشكال الهيمنة والغلبة.
- تعدّ الترجمة أهمّ وسيلة تتمّ بها المثقفة في مجال التواصل اللغوي، فاللغات لن تواكب العصر وتسائر النّمّ الحضاري إلّا من خلال من تستقبله من روافد ثقافية من هنا ومن هناك.

6. قائمة المراجع:

المؤلفات:

- المناصرة، عزّ الدين، 1988م، مقدّمة في نظرية المقارنة، دار الكرمل، الأردن.
- خالد بن عبد الله القاسم وإبراهيم بن حمّاد الرئيس أحمد بن عثمان المزيّد وإدريس بن حامد محمّد وعلي بن عبد الله الصيّاح، المدخل إلى الثقافة الإسلاميّة، مدار الوطن.
- ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين بن مكرم، لسان العرب (مادة ثقّف). ج6، مج1، دار المعارف، مصر. دت.
- الفيروز آبادي الشيرازي، مجدّ الدين محمّد بن يعقوب، 1399هـ-1979م، القاموس المحيط (مادة ثقّف)، الهيئة المصرية العامّة للكتاب، مصر.
- الزمخشري، أبو القاسم جار الله محمود بن عمر، 1418هـ-1998م، الكشف عن حقائق غوامض التّنزيل و عيون الأقاويل في وجوه التّأويل، تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، الشيخ علي محمّد معوض، ج6، مكتبة العبيكان، السعودية.
- حنفي، حسن، 1427هـ-2006م، مقدّمة في علم الاستغراب، ط3، مجد المؤسسة الجامعيّة للدراسات والنّشر والتّوزيع، لبنان.
- المناصرة، عزّ الدين، 1996م، المثقفة والنّقد المقارن، المؤسسة العربيّة للدراسات والنّشر، لبنان.
- الخطيب، عبد الكبير، 1980م، في الكتابة والتجربة، دار العودة، لبنان.
- ابن خلدون، عبد الرّحمن، المقدّمة، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم، لبنان.
- عيّاد، شكري، 1971م، الأدب في عالم متغيّر، الهيئة المصرية العامّة للتأليف والنّشر، مصر.
- محفوظ، محمّد، 2000م، الحضور والمثقفة (المثقف العربي وتحديات العولمة)، المركز الثقافي العربي، لبنان، الدار البيضاء، المغرب (الرباط).
- الموصلي، أحمد، صافي، لؤي، 2002م، جذور أزمة المثقف في الوطن العربي. دار الفكر المعاصر، لبنان.
- هلال، محمّد غنيي، الأدب المقارن، دار الثقافة ودار العودة، لبنان.
- مفتاح، محمّد، 2000م، مشكاة المفاهيم -النّقد المعرفي والمثقفة-، المركز الثقافي العربي، بيروت لبنان، الدار البيضاء، المغرب.
- طرايبيش، جورج، 1977م، شرق وغرب رجولة وأنوثة (دراسة في أزمة الجنس والحضارة في الرواية العربيّة، دار الطليعة، لبنان.
- أبو إصبع، صالح، 1999م، الاتّصال والإعلام في المجتمعات المعاصرة، دار إرام، الأردن.
- سارتون، جورج، تاريخ العلم والإنسيّة الجديدة، تر: إسماعيل مظهر. دار النّهضة العربيّة، مصر.
- الجابري، محمّد عابد، تكوين العقل العربي، 1991م، مركز دراسات الوحدة العربيّة، لبنان.
- أحمد محمّد عبد الله، مجدي، 2008م، مقدّمة في سيكولوجية الاتّصال والإعلام، دار المعرفة الجامعية، مصر.
- لوساني، أحمد، 1996م، العلاقات التّاريخية بين العرب والإيرانيين (بحوث ومناقشات الندوة الفكرية التي نظّمها مركز دراسات الوحدة العربيّة حول العلاقات العربيّة الإيرانيّة الاتّجاهات الراهنة وآفاق المستقبل)، مركز دراسات الوحدة العربيّة، لبنان.

أمين، سمير، 1989م، نحو نظرية الثقافة، معهد الإنماء العربي، لبنان.

Robert Lafond ,1963,Vocabulaire Psychopédagogie et de Psychiatrie de l'enfant .P.U.F 6 de ^{ème} Edition.

المقالات:

ابن أحمد قويدر، (ربيع 2007م)، (الثقافة: دراسة في المفهوم والتداعيات)، مجلة شبكة العلوم النفسية العربية، ع14، ص 119.
بوهورور، حبيب، (2011م)، (تمثّل الآخر في النصّ الأدبي الأوروبي الحديث مقارنة لآليات التفاعل النصّية)، مجلة آداب البصرة، ع 56، 2011م، ص 4.

الجابري، محمّد عابد، (ليس في ثقافتنا مفهوم للآخر وحوار الثقافات شعار ظرفي)، مجلة أيس. ع2، ص 67/66.
حليفي، شعيب، (يناير 2000م)، (التدوين والوعي بالآخر). مجلة المناهل، ع 60، ص 190.
عتيق، عمر، (ملاح من الثقافة التركية العربية)، مجلة أفكار، ع 255.

مواقع الانترنت:

توفيق بن عامر، الثقافة والتّغيير، ص 2: www.philadelphia.edu.jo